عظة في أسبوع الفريسي والعشار

القديس لوقا رئيس أساقفة سيمفروبول وسائر القرم
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

أوصانا الآباء القديسون بقاعدة خلاصية مهمة جداً، وعلى الأرجح أنه ليس جميعكم ينفّذونها. القاعدة هي أنه كلَّ مساء قبل الخلود إلى النوم، اجلس لفترة قصيرة وفكّر في كل ما حدث في هذا اليوم: كل أفعالك، وأعمالك، وأفكارك، وكل سلوكك، وكل كلماتك، وتعمق في ما إذا كنت قد قمت بأي شيء شرير أو سيء في هذا اليوم. وإذا وجدت شراً وسوءاً فتُبْ. هذه القاعدة مهمة جداً لأننا إذا اعتدنا أن نتذكر كل مساء ما فعلناه خلال النهار، وما قلناه وفكرنا فيه، فإذا وجدنا كل شيء سيئاً فسنستاء ونخجل؛ وسوف نصحح أنفسنا تدريجياً ونعتاد على عدم القيام بما فعلناه وما لاحظناه.
وإذا ما سار الأمر بهذه الطريقة فإننا سنتخلى بسرعة عن أفعالنا وعاداتنا السيئة ونتعلم ليس فقط أن نرصد قبل النوم ما ارتكبناه من أخطاء بل وأيضاً أن نقوم طوال اليوم بمراقبة أنفسنا وكل خطوة نقوم بها وكل كلمة نقولها؛ من الضروري للغاية مراقبة النفس للانتباه من فعل الشر والسعي لفعل الخير.
ولهذا السبب فإن هذه القاعدة مهمة جداً. ولكن حتى أولئك الذين يقومون بها باستمرار غالباً ما يظلون غير مبرَّرين أمام الله، لأنهم يتذكرون ما فعلوه في ذلك اليوم، وبالغالب يتجاهلونه، ولا يلاحظون الشيء الرئيسي والأكثر أهمية.
قال لنا ربنا يسوع المسيح: "لِمَاذَا تَنْظُرُ الْقَذَى الَّذِي فِي عَيْنِ أَخِيكَ، وَأَمَّا الْخَشَبَةُ الَّتِي فِي عَيْنِكَ فَلاَ تَفْطَنُ لَهَا؟" (متى ٧:٣).
عندما نقرأ أو نسمع هذه الكلمات لأول مرة، يبدو الأمر غريباً بالنسبة لنا: كيف يمكن ألا تلاحظ الخشبة في عينك؟ في النّهَايَة، إن الخشبة تسبب الانزعاج والألم والمعاناة.
لكنْ الواضح أن هذا ممكن، وممكن تماماً، لأن كل أقوال المسيح صحيحة، وقوله هذا صحيح أيضاً.
غالباً ما لا نلاحظ الخشبة في أعيننا، لا نلاحظ الأمر الأهمَّ وأسوأ ما يُظلِم حياتنا، والذي سنقدم عنه إجابة ثقيلة أمام الله.
ما يحدث لنا هو ما حدث للفريسي، الذي صلى في هيكل الله مع العشار، وكانت صلاته غير مرضيَّة لله، إذ كانت عبارة عن سردٍ لكل فضائله وكل أفضاله أمام الله وتقديمِ الشكر عنها. وبتفاخره هكذا أمام الله أدانَ العشار الخاطئ أيضاً. لقد اعتبر نفسه باراً، فلم يلاحظ الخشبة في عينه، ولم يلاحظ ما استنكره الرب يسوع المسيح بشدة عند الكتبة والفريسيين بهذه الكلمات: " وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ! لأَنَّكُمْ تُعَشِّرُونَ النَّعْنَعَ وَالشِّبِثَّ وَالْكَمُّونَ، وَتَرَكْتُمْ أَثْقَلَ النَّامُوسِ: الْحَقَّ وَالرَّحْمَةَ وَالإِيمَان" (متى ٢٣: ٢٣).
هو لم يلحظ ذلك، ولم يعتبر أنه أهمل الحق والرحمة والإيمان، بل فكَّر في صلاحه الطقوسي ولم تكن صلاته مقبولة عند الله.
كثيراً ما نكون مثل هذا الفريسي المتكبر عندما لا نلاحظ أهم ما يُظلم حياتنا وأكبر خطايانا التي نُغضب بها الله. غالباً ما لا نلاحظ أن الاتجاه العام لحياتنا ليس كما تقتضي وصايا المسيح مُطلقاً.
نحن نعتقد أننا إذا التزمنا بطقوس الكنيسة وذهبنا كثيراً إلى الكنيسة وأشعلنا الشموع، فكل شيء يكون على ما يرام، ولا نلاحظ أن حياتنا ليست مبنية وفقاً لوصايا المسيح، ولا نلاحظ أننا نعمل

ليس للروح، بل للجسد، لا نلاحظ أن كل تطلعاتنا موجهة نحو رفاهية الحياة ومتعتها، ولا نلاحظ أننا لسنا روحانيين، بل طبيعيين.

إننا لا نلاحظ خطايانا الرئيسية: إن المخادعين جداً، الذين يكذبون باستمرار، لا يلاحظون ذلك في أنفسهم؛ إن الذين اعتادوا الزنا يعتبرون هذه الخطيئة المخزية غير مهمة، ويستمر محبّو المال في الانغماس في هذا الهوى؛ الفارغون والمتكبرون الذين يرفعون أنفسهم فوق إخوتهم ويدينونهم لا يلاحظون خطايا الإدانة والكبرياء المميتة.

كيف يكون ذلك ممكناً، لماذا لا نشعر بالخشبة في أعيننا، لكننا نلاحظ القذى فقط، بل وعلاوة على ذلك نلاحظ أنَّ هناك قذىً في عيون جيراننا أكثر مما في أعيننا؟ كيف لا تلاحظ أخطر خطاياك؟ وذلك يحصل، ويحصل بكثرة: عندما نخطأ كثيراً، فإننا نعتاد على تلك الخطيئة التي نرتكبها.

الآن، إذا كنا في كل مساء لا ننتبه لأنفسنا أننا نقوم بأمرٍ سيئ، فإننا نعتاد تدريجياً على عدم ملاحظة خطايانا ومَيلنا إلى الكذب والإدانة والشهوة، وعندما لا نلاحظ ذلك، فإن الخطيئة تتحول إلى عادة ونتوقف عن ملاحظتها، لأننا لا نلاحظها مُطلقاً؛ إننا لا نلاحظ شيئاً عادياً أو مألوفاً.

لا يسترعي انتباهنا إلا ما هو غير عادي وما هو ملفت للنظر، أما ما نراه وما نفعله كل يوم، وما يصبح عادة، فهو يمر دون مُلاحظة. وهكذا يحدث أننا لا نلاحظ الخشبة في أعيننا، وذلك يحصل كثيراً. يحدث هذا لنا جميعاً تقريباً. وهذا مخيف جداً. وما هو أسوأ من ذلك أننا قد لا نلاحظ أخطر خطيئة تفصلنا عن الله.

ما الذي أتحدث عنه؟ إننا نعلم من كتب الأنبياء وحياة الشهداء بين القديسين، ونقرأ مرات عديدةً أن الله دخل مباشرة في شركة مع الناس وكشف إرادته للأنبياء، كما لو أنه كان يتحدث إليهم ويخبرهم عما يُفترَض أن يعلنوه للعالم.

والشهداء القديسون، بعد أن عُذِّبوا بعذابٍ لا يوصف وتم إلقاؤهم في السجون، ظهر لهم الملائكة القديسون يقوونهم. في كثير من الأحيان ظهر لهم المسيح نفسه، وباركهم على العمل الصعب الذي كانوا مزمعين أن يقوموا به.

ولكنْ، ليس الأنبياء والشهداء وحدهم من يتحدث إليهم الله نفسه بشكل مباشر.

إن اهتمامه بخلاص الناس ومحبته للناس عظيمان جداً وبلا حدود، حتى إنه لا يتردد في التحدث مع أفراد، ولو لم يكونوا روحانيين تماماً، إنما على الأقل روحانيين إلى حد ما، فهو يتكلم ويوصي في الحلم كما في الحقيقة، ويكشف إرادته.

يا للروعة والعظمة! الله نفسه يتحدث إلى شخص وضيع حول ما يطلبه ويتوقعه منه. قد يبدو أنَّ هذا الشخص يجب أن يرتعد بقشعريرة لا توصف عندما يسمع صوت الله، وبعد أن يعود إلى رشده سيجاهد على الفور بحميَّةٍ لتحقيق ما أوصى به الله. لكن الشيطان يقف أمام القلب ويهمس: "لا ينبغي أن يتم هذا الآن، بل يمكن أن يتم فيما بعد، فالظروف الآن ليست مناسبة للقيام بما أمَرَ به. انتظر، انتظر، حتى تتغير الظروف، من ثم تتمم وصية الله."

إذا قبلنا نصيحة الشيطان الملعونة هذه في قلوبنا فسوف نؤجل تحقيق ما أوصى به الله، ليس فقط من يوم لآخر، بل من سنة إلى أخرى.

ولعل هذا هو أخطر الخطايا كلها. أوه، بالطبع هذا هو أسوأ خطيئة. أنتم تعلمون أن هذا ما فعله ذات مرة النبي القديس يونان الذي أمره الله أن يذهب إلى نينوى ويكرز هناك بالتوبة. لكن يونان لم يطِع، وقرر أن يهرب من الله. فركب سفينة متجهة في الاتجاه المعاكس إلى نينوى وفكر في الهروب من غضب الرب.

إن الله عاقبه على الفور: فأثار إعصاراً رهيباً في البحر حتى شارفت السفينة على التحطُّم. وصلى البحارة إلى آلهتهم طالبين منهم المساعدة. فكروا قائلين: "إن فينا من أغضب الله وأصابنا بسببه بلاء عظيم". وألقوا قرعة فوقعت القرعة على يونان. تم استجوابه، واعترف بأنه لا يريد تنفيذ أمر الله، وطلب هو نفسه أن يُلقى في البحر حتى تهدأ العاصفة. وكان من المؤسف أن يترك صانعو السفينة يونان، لكن السفينة كانت على وشك التحطُّم، وأصر يونان على ألا يعفوا عنه؛ فطرحوه في البحر، وفي الحال هدأت العاصفة.

أُنظروا ما أفظع عصيان الرب! ترون كيف يعاقب الرب بشدة أخصاءه غير الطائعين: أمر أن يطرحوا يونان في البحر، وأمر أن يبتلعه حوت كبير قذف به إلى الشاطئ. لم يحكم الله عليه بالموت لِعِلمِه أن يونان سيتوب. وهذا مثال لنا. فلنتذكر أنه ليست جميع أوامر الله المباشرة هي ما يجب أن يُطاع فحسب، ولكن أيضاً نذورنا لله يجب أن نتممها فوراً وبدقّة، لأن عدم الوفاء بالنذور هو أيضاً خطيئة عظيمة.

إنكم ترون مدى صحة وأهمية كلمات المسيح عن الخشبة التي لا نلاحظها في أعيننا. صدقوني، صدقوني، إننا في كثير من الأحيان لا نلاحظ الخشبة التي في أعيننا نحن. صدقوني، خافوا من مثال النبي يونان، خافوا من عقاب الله لعدم تنفيذ وصاياه: خافوا ألا تلاحظوا أهم وأخطر خطاياكم، مثل الفريسي الذي اعتبر نفسه رجلاً صالحاً.

اعلموا أن الرب لا يتركنا حتى عندما نعصيه ونرفض أن نعمل مشيئته. إنه ينذرنا بأمراض خطيرة وغير متوقعة ومصائب كبيرة.

لذلك، فلنتخذ القاعدة التالية: إذا أصيب أيٌّ منا بمرض غير متوقع، فليُفكر بعمق ويبحث عن سبب إرسال الله لهذا المرض أو هذه المحنة. إذا كنا صادقين وتفحَّصنا قلوبنا بعمق فسنفهم الغاية والسبب.

فلتُنِرْنا تلك التجارب وتلك الأمراض المرسلة من الله. لا ننسينّ أبداً كلمات المسيح عن الخشبة التي في العين. لا ننسينّ الفريسي الذي اعتبر نفسه رجلاً صالحاً، لكنه لم ينل من الله ذاك التبرير الذي يستحقه العشار الخاطئ ولكنِ المتواضع.

ضعوا قاعدة لذواتكم ألا تتذكروا أعمالكم الصالحة أبداً، بل انسوها تماماً. تذكروا دائماً خطاياكم وأفعالكم السيئة فقط. وعندها ستصبحون متواضعين وتعتبرون أنفسكم خطأة أكثر من جميع الناس، والتواضع هو الفضيلة الأولى والرئيسية عند المسيحي.

لينقذْنا ربنا وإلهنا يسوع المسيح جميعاً من تبرير الذات وتقديس الذات والتعالي، وليمنحنا التواضع المقدس. آمين.

Source: St. Luke, Archbishop of Simferopol and All Crimea. Homily Two on the Week of the Publican and the Pharisee. (Delivered in 1952). Mystagogy Resource Center. https://www.mystagogyresourcecenter.com/2023/02/homily-two-on-week-of-publican-and.html